الفروق السيكلوجية
بين الأجناس
(RACES)
للأستاذ عبد العزيز عبد المجيد

تمهيد

قصدت بهذا التمهيد أن أقدم مجالة عامة عن مشكلة الأجناس البشرية والمفاضلة بينها، وألا أتعرض للبحوث العلمية التي أجريت منذ أواخر القرن الماضي لمعرفة الفروق بين الأجناس. وقصدت أيضاً أن أجعل موضوع اليوم ذا صبغة تاريخية اجتماعية حتى أريح القارئ قليلاً من مطالعة الحقائق العلمية الجافة، ولكنني إن أعفيته هذا الأسبوع من عرض الحقائق العلمية التجريبية فلن أعفيه منها في الأسابيع القادمة

ومشكلة الفروق الجنسية مشكلة قديمة كقدم آدم. لا بل إنها تبدأ به، وبالخلاف بينه وبين إبليس اللعين، فإنه لم يتحرج من إعلان احتقاره للجنس البشري حين أبى أن يسجد لآدم كأمر ربه. فقال الله تعالى: « ما منعك أن تسجد لما خلقت بيدي؟ أستكبرت أم كنت من العالين؟ قال: أنا خير منه، خلقتني من نار وخلقته من طين » ومن هذا اليوم ظهر الخلاف بين الجنس الناري والجنس الطيني، وهو خلاف جر مصائب على إبليس ومن تبعه، وعلى آدم وذريته من بعده، ولا يزال مثل هذا الخلاف الجنسي مبعث المحن بين بني آدم أنفسهم

ثم هبط آدم إلى الأرض وتفرق أبناؤه شعوباً وقبائل، واختلفت ألسنتهم وألوانهم، وبعدت صلتهم بأبيهم الأول، فتنافسوا وتحاسدوا، ووقعت بينهم العداوة والبغضاء، وذهب كل شعب يُدِلُّ بعَدده وعُدده، وحضارته وثقافته، ويفخر على الشعب الآخر، ويعيره قلة العديد وتأخر الحضارة. وكان ما كان مما حفظه لنا التاريخ والكتب المقدسة وما لم يحفظ

أقام بنو إسرائيل في مصر القديمة، وفلحوا الأرض، ورفعوا البنيان، وكثر عددهم، وقوي ساعدهم، وأصبحوا ذوي نفوذ وسلطان. فخشيهم فرعون ومن معه، ونظروا لهم شزراً واحتقاراً « واستعبد المصريون بني إسرائيل بعنف، ومرروا حياتهم بقسوة، واستعبدوهم واستخدموهم في الطين واللبن، وفي كل عمل في الحقل. وكان كل عملهم عملوه بتأثير الضغط والعنف ...[1] » ولم يكن صِرِنْفتاح بأليَن جانباً مع الإسرائيليين من سلفه رمسيس الثاني، فأذاقهم الأمرين لا لسبب إلا لأنهم غير مصريين، ومن جنس أجنبي، حتى إذا بلغ بهم البؤس مبلغه جاءهم موسى بعصاه، فأنقذهم من جناية جنسهم عليهم، ولاقى صرنفتاح حتفه شر لقاء

ثم سار التاريخ سيرته في الشرق والغرب، فظهر الإغريق بحضارتهم وفلسفتهم وآدابهم، تلك الحضارة الإغريقية التي يعزى إليها — وإلى الرومانية أيضاً — فضل النهضة العلمية الأوربية

وحسب الأغريق أنهم شعب مقدس لا يصح أن يتزاوج مع غيره، ولا أن يختلط غيره به[2]. وسموا غيرهم من الشعوب همجياً ووحشياً. ولم يذكروا أن حروفهم الأبجدية إنما كانت عارية فينيقية، وأن مبادئهم الفلسفية نشأت في مصر. فتعصبوا

آخر غير قابيل، إنه شيء غامض محاط بالسر ...

وتهد قابيل تهدة المحنق وظل يتبع أخاه النظر يسعى إلى الكوخ بجسمه الطويل المعروق والماشية تسعى من أمامه

هذا الإنسان الغريب الغامض لم لا يسبر غوره ويقيس قوته إليه؟

... ورويداً رويداً نزل الظلام؛ ورويداً رويداً امتد الزمن به. فقام أخيراً وقد أزمع أمراً

لقد وجد ميداناً جديداً تبرز فيه قوته. ولقد كان الظلام حليفه هذه المرة، لأن قابيل لم يستطع أن يبلغ مأربه إلا في الظلام!

ومضى الليل إلا أقله، وبينما كان آدم وحواء نائمين، وقف قابيل خلف أخيه، ثم رفع يده وهوى بها، فسقط هابيل، دون أن يتهيأ لهذه المفاجأة، لأن أخاه استعان بها كما استعان بالظلام!!

وهكذا استطاع قابيل أن يجرب قوته من جديد وقد نجح في ذلك

وبعد، أفتدرون لم لا يأكل الناس بعضهم بعضاً؟ ذلك لأنهم يجدون ما يأكلون

« م. رشيد »

---

(١) سفر الخروج الاصحاح الأول الآيتين الثالثة عشرة والرابعة عشرة

(٢) أنظر جمهورية أفلاطون

ضد غيرهم من الأجناس ، ودعوهم برابرة . وكانت كلمة Bàrbaros أول ما ظهرت ظهرت فى لغتهم[1]، فأطلقوها على الرومان جيرانهم، لأنهم كانوا من جنس غير جنسهم، ولأن لغتهم اختلفت عن لغتهم، ولأنهم كانوا دونهم فى الحضارة والثقافة ، ولم تلبث هذه الكلمة أن دخلت اللاتينية فاستعملها الرومان بدورهم ،وأطلقوها على الشعوب الأوربية التى كانت تناخمهم كالصقلب والكلت والجرمان . وهكذا اعتبر الرومان — الذين كانوا يسمون برابرة — كل من لم يدخل ضمن نفوذ الإمبراطورية الرومانية بربرياً لأنه غير متحضر ، ولأنه من جنس دون الرومانى

لم تكن الحال فى بلاد العرب قبل الإسلام بأحسن منها عند الأمم الأخرى ، فبا الرغم من أن العربى يمتز بجنسه العربى كانت المنافسة بين عرب الجنوب وعرب الشمال تصل إلى العداء والقتال، بل كانت الحروب بين العدنانيين أنفسهم لا تطفأ لها نار . وكان التعصب للقبيلة — التى هى الجنس بمعنى ضيق — من أهم أسباب هذه الحروب . وكان الفرد من البطن يفخر على ابن عمه من البطن الآخر بنبل أسرته وكرم محتده . وظل أثر ذلك إلى الإسلام . وها هو ذا جرير يهجو نميرياً بقوله :

فغض الطرف إنك من نُمير فلا كعباً بلغت ولا كلابا

مع أن كلاباً ونميراً كلاهما ينتمى إلى أصل واحد هو عامر ابن صعصعة الهوازنى

ما كان الإسلام دين تعصب أو جنسية . فقد كان الناس فيه سواسية كأسنان المشط . ولم يكن بين المسلمين فضل لعربى على عجمي إلا بالتقوى . وقد حافظ الخلفاء الراشدون على هذه المبادئ السامية ، فلم ينظروا إلى الشعوب المفتوحة نظرة الغالب القوى ، ولم يحطوا من شأن الأجناس التى خضعت لهم . بل لقد كان أول الشروط التى قدمها عمرو بن العاص إلى مقوقس مصر هو « إما دخلتم فى الإسلام ، فكنتم إخواننا وكان لكم ما لنا وعليكم ما علينا » . غير أن النعرة العصبية القديمة بُعثت فى عهد الأمويين الذين اعتقدوا أن العرب هم أفضل الأجناس ، وأن لغتهم أرقى اللغات . ونظروا إلى الموالى وأجناسهم نظرة احتقار وازدراء . وكانت هذه سياسة خاطئة أثارت حروباً جدلية شعواء ، وكرهت الأجناس غير العربية — ولا سيما الفرس — فى حكم الأمويين فأخذوا يتلمسون الفرص للثورة والخروج على الولاة ، فانضموا إلى الخوارج والشيعة ، وآزروا دعاة بنى العباس ، فكان لهم النصر

ولم تكن هذه المفاضلة الجنسية بين العرب والفرس فقط ، بل كانت بين العرب أنفسهم عدنانيين وقحطانيين فى الشرق وفى الأندلس . وكانت اليقظة الشعوبية (فى بلاد فارس) أيام حكم العباسيين ، هى التى مهدت وجود تلك الدويلات التى مهدت لزوال الخلافة

وقد أسرف الشعوبيون فى الحط من شأن العرب ، فرموهم بالتأخر ، وأنه لم يكن لهم ملك يجمع سوادهم ، ويضم قاصيهم ، وينحى سفيههم . ولم تكن لهم قط نتيجة فى صناعة ، ولا أثر فى فلسفة ، إلا ما كان من الشعر ، وقد شاركهم فيه العجم . ورماهم ابن خلدون بالتوحش وتخريب العامر ، واستباحة أموال الناس نهباً ومغرماً

وفى أوربا استمرت الحروب الجنسية أثناء القرون الوسطى بين القوط والوندال ، وبين الجرمان والغال ، وبين السكسون والكلت ، وبين الاسكتلنديين والإنجليز . وهذه الحروب وإن كان بعضها للغزو والغنيمة إلا أن الجنسية كانت تشملها ، لأن الجنسية أو العصبية كانت دائماً العامل المشترك بين أفراد الفريقين المتحاربين

وفى أوربا الحديثة شاعت نظرية الجنس الأبيض والأجناس الملونة Coloured races، واعتقد العامة — والمتعلمون أيضاً — أن الأجناس الملونة أحط من الجنس الأبيض فى الذكاء والاستعداد الفطرى للانتاج ، والاستعداد لتلقى الحضارة . ولعل الذى ساعد على انتشار هذه النظرية الخاطئة ، وهى سيادة الجنس الأبيض الأجناس الملونة

وفى أمريكا — بلاد الديمقراطية — نجد الزنوج فى ولايات الجنوب موضع احتقار مواطنيهم البيض ، وهذا بالرغم من تفوقهم فى الزراعة والصناعة والرياضة

ثم ما هى تلك الحمى الجنسية الطائشة التى عبثت بعقول العلماء والساسة من النازيين فألفوا الكتب ووضعوا القوانين ليثبتوا

(١) أصل كلمة Barbarian عند الاغريق القدماء الأجنبى . ومنها كلمة بربر لسكان شمال أفريقية . ويزعم بعض المؤرخين أنها من وضع العرب عند فتحهم لهذه البلاد ، والحقيقة أن الكلمة كانت مستعملة قبل الفتح العربى . فقد وجد فى النقوش المصرية القديمة التى يرجع تاريخها إلى سنة ١٧٠٠ و سنة ١٣٠٠ ق م كلمتان هما : باراباراً ، وباراباراتا ، وكل منهما اسم قبيلة من سكان ليبيا